شخصيات معاصرة من تاريخنا القديم:

"النَّشْو"

يسعى في الناس بالشرّ ولاينجو من أذاه أحد!

بقلم جمال الغيطاني

يفصلنا عن شرف الدين عبد الوهاب النشو سبعة قرون هجرية ، مات الرجل منذ زمن بعيد ، ولكنه لازال يسعى بيننا هذا ما تقوله سيرته وأفعاله ، وما تقوله سيرة وأفعال الكثيرين ممن يعيشون حولنا الآن .

والنشو لم يكن بطلا من أبطال التاريخ ، إنما كان رجلا عادياً ، بدأ حياته بخدمة الأمراء فى زمن السلطان الناصر ابن محمد بن قلاوون . كان مستخدماً عند ابن هلال الدولة شاد الدواوين ، وكان يتردد عليه كثيراً ويبالغ فى خدمته ، واستخدمه ابن هلال الدولة فى الأشغال ، وأثناء ذلك تزوج الأمير آنوك ابن السلطان من ابنة الأمير بكتمر الساقى ، وبدأ السلطان يفكر فى شخص يعينه لخدمة ابنه ، ولابد أنه فكر فى النشو ، كان النشو قد وقف بين يديه أكثر من مرة ، وتحدث اليه ، وعندما كان يتكلم الى السلطان كان يركز كل حواسه ، ومواهبه ، حرصاً على أن يترك أثراً ما فى نفس السلطان . فى صفر سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة هجرية ، التحق النشو بخدمة الأمير آنوك ، وكان هذا أول صعوده ..

أصبح النشو قريباً من السلطان بحكم موقعه الجديد ، وصار يتردد كثيراً على القلعة ، ويخلو الى السلطان ، ويحادثه فى أمور الدولة ، ويبدى الحرص البالغ على أموال السلطان ، ومصالحه . وسير العمل فى الدواوين ، وفى أثناء ابدائه الحرص ، كان يرمى عبارات هنا وهناك فى حديثه فى البداية كان يلفظها بحذر ، ثم لاحظ أن أذنى السلطان مصغيتان اليه ، فزاد من الدس والوقيعة ، وكان مظهره يساعده . إنه طويل القامة ، مليح الوجه ، حلو التقاطيع ، بريء السمات ، أثر كلامه فى نفس السلطان حتى بات مقتنعاً ان النشو بحرصه عليه يمكنه أن يحصل له مالا كثيراً ، فأصدر مرسوماً بأن يتولى النشو نظارة الخاص ، أى يكون مسئولا عن أموال السلطان وممتلكاته . وهذه وظيفة هامة جداً ، ولكن النشو لم يهدأ ، ولم يتوقف ، أخذ يتحدث الى السلطان عن أولاد موظف كبير اسمه التاج اسحق ، راح يحدثه عن الأموال التى جمعوها بالباطل ، وكرههم له ، وكان أحد هذين الولدين قد تولى وظيفته فى نفس اليوم الذى عين فيه النشو ناظراً للخاص ، وهو شرف الدين موسى ، لم يمض إلا عشرين يوماً فقط ، وعمل كلام النشو عمله فى السلطان ، فأصدر مرسوماً بعزل شرف الدين موسى من نظر الجيش ، وأمر بالقبض عليه ، وعلى شقيقته ، ومصادرة ثروتهما ، وكان أسلوب السلطان الناصر قلاوون غريباً فى ضرب موظفيه

النشـــــو..
يســـعى في النـــاس بالشـــر ولا ينـــجو من أذاه أحـــد!

لقد استدعى ابن هلال الدولة ، وأسر اليه أن يمضى ليحاصر بيوت أولاد التاج اسحق بمجرد دخول الأمراء البلاط ، وبالفعل دخل الأمراء وكبار موظفى الدولة ـ وبينهم شرف الدين موسى ـ الى السلطان ، عندئذ التفت السلطان الى القضاة وأخذ فى الثناء على شرف الدين ، وقال فى آخر كلامه :

« أنا رأيت هذا وعملته كاتبى » .

فى هذه اللحظة بالذات كان الجنود يحيطون ببيته ، وبيت شقيقه ، وعندما خرج من البلاط ، واتجه الى مقر وظيفته ، كانت العيون تحيطه بالرهبة ، ألم يثن عليه السلطان علناً ، ولكنه ما إن جلس بديوان الجيش حتى بلغه أن الحوطة قد وقعت على بيته ، وان رسل الديوان على باب الجيش ، وبلغ الخبر ايضاً الى أخيه علم الدين . وفى العصر صعد ابن هلال الدولة بأوراق الحوطة (كشوف جرد المحتويات) وهى تشتمل على أشياء كثيرة جداً ، منها على سبيل المثال ، أربعمائة سروال لزوجة علم الدين . أمر السلطان بتسليم الأخوين الى ابن هلال الدولة للتحقيق معهما ، والتوصل الى الثروات المخفية ، وأحضرت آلات التعذيب ، من أسواط ، ومعاصير وسئل موسى عن صندوق ذكر أنه أخذه من تركة أبيه ، فيه من الجواهر والذهب ما يبلغ مائة ألف دينار ، وكان النشو قد أفضى الى السلطان بوجود هذا الصندوق . فأنكر موسى ذلك ، وأقسم الأيمان المغلظة ، فرق له ابن هلال الدولة ولم يعذبه ، وهنا استنكر النشو ذلك ، وأخذ على ابن هلال الدولة هذه الرقة ، مع أن الرجل هو أول من استخدمه ، وهو ولي نعمته ، واضطر ابن هلال الدولة الى التضييق على موسى ، لينتزع منه كل ما لديه . إن النشو الآن لا يقيم وزناً لابن هلال الدولة ، إنه يتحدث الى السلطان رأساً ، والكلام يخرج من فمه الى أذني السلطان رأساً ، كما أنه لم يكن يدع فرصة إلا ويظهر فيها إخلاصه وولاءه عند عودة السلطان من الحج ، تولى النشو الاشراف على مظاهر الاحتفال ، خرج الناس للقاء الناصر ، وغلقت الدكاكين والأسواق ، وجمع النشو من الأمراء الأبسطة ، والمنسوجات الحريرية الثمينة المشغولة بالذهب ، وبسطها فوق الأرض أمام القلعة ، وحتى مقعد السلطان . وتمضى الأيام ، ونفوذ النشو يقوى ، ويتزايد ، يقول المقريزى فى كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك :

«وفى هذا الشهر كثرت مصادرات النشو للناس ، فاقام من شهد على التاج اسحق أنه تسلم من المكين الترجمان صندوقاً فيه ذهب وزمرد وجوهر مثمن ، فرسم لابن الحسنى بعقوبة موسى بن التاج اسحق حتى يحضر الصندوق ، وطلب النشو ولاة الأعمال وألزمهم بحمل المال ، وبعث أخاه لكشف الدواليب بالصعيد وتتبع مواشى ابن التاج اسحق ، فقدم قنغلى والي البهنسا ، وقشتمر والي الغربية وفخر الدين إياس متولي المنوفية ، وعدة من المباشرين فتسلمهم ابن هلال الدولة ليستخلص منهم الأموال ...

كان النشو اذا اضطهد شخصاً فانه يتتبعه حتى يدمره تماماً ، ويتتبع أى انسان يمت اليه .. هكذا فعل مع موسى بن التاج اسحق .

● يستعين بالأشخاص ذوى السمعة السيئة والأشرار

بدأ النشو يعتمد على أقاربه ، وأرسل أخاه واسمه المخلص الى الصعيد فى مهمة ، عاد منها ليقدم اليه تقريراً عن ثروات مباشرى الوجه القبلى ، وطلع النشو الى السلطان ، راح يغريه بهم جميعاً ، ويتحدث عن إتلافهم مال السلطان ، وهنا صدر مرسوم بالحوطة على جميع مباشرى الوجه القبلى ، واعتقالهم ، وطلب النشو تجار القاهرة ومصر ، وطرح عليهم عدة أصناف من الخشب والجوخ والقماش بثلاثة أمثال قيمتها ، كان يبيع بضائع السلطان بأسعار مرتفعة جداً ، وهكذا يحصل له على أموال طائلة ، فى الوقت الذى بدأ هو بتكوين ثروته ولكن فى حذر شديد . وكان السلطان الناصر يصدر أحياناً بعض المراسيم التى تتسم بالخير ، وهكذا أصدر مرسوماً بمسامحة الأمراء فى الأموال المدينين بها للديوان . ولكن النشو لم ينفذ هذا المرسوم ، والزم مباشرى الأمراء بتسديد هذه الأموال . وركب الى السلطان ، وأوضح له قيمة الأموال التى يمكن أن تضيع نتيجة لهذه المسامحة ، وان مال السلطان يضيع ويتبدد ، وان الدواوين تسرق بحجة مسامحة الأمراء .وتأثر السلطان بما سمعه ، ومكن النشو من عمل ما يختاره . وألا يسامح أحداً بشىء مما عليه للديوان . وشق ذلك على بعض الأمراء ، فراجع الأمير قوصون السلطان ، ولكنه لم يجبه الى شىء . عندئذ كف الأمراء عن السؤال . وعظم النشو فى أعين الناس .

واستعان النشو بالأشخاص ذوى السمعة السيئة . استدعى الشمس بن الأزرق وكان ظلوماً غشوماً ، فكتب له أسماء أرباب الأموال من التجار ، وفرض عليهم قماشاً بثلاثة أمثال قيمته . يقول المقريزى :

«وعمت مضرة النشو الناس جميعاً ، وانتهى اليه عدة من الأشرار ، ونموا على الكافة من أهل الوجه القبلى والوجه البحرى ، ودلوه على من عنده شىء من الجوارى المولدات لشغف السلطان بهن ، فحملت اليه عدة منهن بطلبهن من أربابهن . وسعوا عنده بأرباب الأموال أيضاً . فدهى الناس منه بلاء عظيم» ..

وبين الحين والآخر ، كان كبار رجال الدولة يفضون بشكواهم الى السلطان ، ولكنه كان ينهرهم ، ويبدى الثقة بالنشو ، وأذن له فى عمل ما يختاره ، وأن يتصرف فى أمور الدولة كما يشاء وألا يبالى بأحد ، ووعده بتقوية يده ، وتمكينه ، ومنع من يعارضه . بل ان السلطان استدعى اخوة النشو وأقاربه ، وعينهم عند كبار الأمراء ، فجعل المخلص أخ النشو مباشراً عند الأمير سيف الدين الناق ، واستخدم أخاه رزق الله عند الأمير ملكتمر الحجازى ، واستخدم صهره ولي الدولة عند الأمير ارغون شاه ، وخلع عليهم .

انبسطت يد النشو ، واشتدت وطأته ، واستدار ليضرب أول شخص أحسن اليه ، وكان بداية صعوده ، التفت الى ابن هلال الدولة نفسه .

● ابن هلال الدولة يلزم بيته بتدبير من النشو

أخذ النشو فى التدبير على ابن هلال الدولة . رتب عليه أنه أخذ من مال السلطان جملة . وأنه أهمل فى المحافظة على أمور السلطان ، وأنه بسببه ضاع مال كثير . وانتدب لتحقيق ذلك ثلاثة ، أمين الدولة بن قرموط المستوفى ، والشمس بن الأزرق ناظر الجهات ، وشخص ثالث اسمه لؤلؤ الحلبى . وحدد يوم للمواجهة . بالطبع رتب النشو كل كبيرة وصغيرة . انعقد المجلس فى القلعة . وفى البداية برز قرموط ، وواجه ابن هلال الدولة بأنه أهمل الأمور ، وبرطل (رشا) بالأموال ، ولم يستمع السلطان الى الباقين . بل أمر ابن هلال الدولة أن يلزم بيته ، وعين شخصاً آخراً بدلا منه فى وظيفته . وأمر بدر الدين لؤلؤ الحلبى باستخلاص الأموال . قبض على ابن هلال الدولة ، وصودرت أمواله . وهكذا أجهز النشو على ولي نعمته . والذى كان وجوده يذكره بأيام الزمن القديم عندما كان موظفاً صغيراً فى خدمته .

ثم اختار النشو شخصاً قاسياً ، غتيتا ، هو ايدكين الأزكش لولاية القاهرة ، وبدأ نشاطه بمهاجمة البيوت ، ومصادرة الأموال ، وصار يتنكر فى الليل ويمشى فى أزقة القاهرة ، فاذا سمع صوت غناء أو شم رائحة خمر هاجم المكان وأخذ من أهله أموالا طائلة طبقاً لأحوالهم . وكان النشو يوجهه ، وينفذ أغراضه من خلاله . ولما

تزايد أمر ايدكين ، طلع الأمير قوصون وشكاه الى السلطان . وهنا تغير السلطان على قوصون وقال له :

«أنتم كلما وليت أحدا ينفعنى أردتم اخراجه ، ولو أنه من جهتكم لشكرتم منه كل وقت» .

وفى الحال أصدر مرسوماً بأن يتولى أيدكين ولاية مصر ، الى جانب القاهرة ، ولم يجمع الولايتين أحد قبله . وعظم أمر أيدكين . فى أحد الأيام خرج من القاهرة الى قرية النخيلة بالوجه البحرى ، وكانت متنزهاً للناس . هاجمها وقت الغروب فما قبض على أحد إلا وسلبه ثيابه وتركه عارياً ، عرى البلدة كلها عن بكرة أبيها ، وجمع أموالا كثيرة .

غير أن أيدكين لم يستمر طويلا فى منصبه ، ففى أول سنة خمس وثلاثين وسبعمائة هجرية عزل ، ونفى الى الشام ، وكان السبب سعاية عدد من كبار الأمراء ضده عند السلطان .

وفى نفس السنة لاحظ النشو أن مستوفى الدولة أمين الدين قرموط يكثر من الاجتماع بالسلطان . فخاف عاقبة ذلك ، مع أنه هو الذى قدمه الى السلطان ، وبدأ يتكلم فى حقه . وقال انه جمع كثيرا من مال السلطان لنفسه ، فقبض عليه ، وعلى جماعة معه ، وعوقب قرموط وضرب بالمقارع سعيا لاستخلاص أربعين ألف دينار منه . ولكنه صمد للضرب . عندئذ قيل انه جلد ، وانه لن يعترف إلا اذا ضرب ابنه أمامه ، وجاءوا بولده وبدأوا بضربه فلما اشتد البلاء بقرموط ضرب نفسه بسكين فى حلقومه محاولا الانتحار ، ولكنهم انتزعوها منه ، واستمر تعذيبه ، وتعذيب ابنه .

فى هذه الفترة قدم الأمير تنكز نائب الشام يوم الاربعاء الحادى عشر من رجب (٧٣٥ هـ) ، وسعى عند السلطان ليفرج عن ابن هلال الدولة ، وساعده الأمير قوصون . وبالفعل استجاب السلطان لهما ، وأفرج عن الرجل ، وكان النشو مسافراً الى الاسكندرية . وعند عودته فوجىء بالخبر ، وشق عليه الافراج عن ابن هلال الدولة ، وطلع الى السلطان ، وراح يتحدث عن ابن هلال الدولة وخطورته ، ومال السلطان اليه ، فأمر الوالى باحضاره الى القلعة ، وخرج الوالى الى ابن هلال الدولة ، سبه ولعنه ، وأبلغه عن السلطان أنه متى اجتمع به أحد شنقه . فنزل وأقام بالقرافة منقطعاً عن جميع الناس . واستمرت سعاية النشو فى الناس . اتهم والى دمياط بأنه خرب أساساً قديماً فى البحر بين البرجين ، كانت عليه طلسمات تمنع ماء البحر المالح عن ماء النيل ، حتى تلفت الطلسمات وغلب البحر على النيل ، فتلفت بساتين ، وان الوالى نال من ثمن هذه الحجارة أموالا طائلة . واعتقل والى دمياط ، وعذب ، واستخرج منه وجمع أموالا كثيرة .

وقبض النشو على امرأة موسى بن التاج اسحق ، عاقبها وهى حامل عقوبة شديدة على احضار المال حتى طرحت ما فى بطنها ولدا ذكرا .

كان النشو يستخدم شرار الخلق ، وكانت له نساء عجائز يتجسسن فى البيوت الكبيرة ، وحدث أن احدى هؤلاء النسوة أبلغته عن أولاد «ابن الجيعان» وأنه يسعى فى نظر الجيش ، والآخر يسعى ليتولى نظر الخاص ، عندئذ طلب النشو كاتب الاصطبل منهم ، وطلب منه أن يكتب حساب الاصطبل . فامتنع ، ورد عليه بكلام خشن عندئذ سعى النشو عليه عند السلطان حتى قال له السلطان :

«لم لا تعمل حساب الاصطبل ، وتعطيه الناظر ؟»

يقصد النشو ، فقال :

«يا خوند : بدل أن تطلب حساب الصبى والمقاود ، اطلب حساب الذهب الذى يدخل الى خزائنك» .

وأغلظ فى حق النشو ، وعندما قابله ، قال له :

«ونعمة مولانا السلطان أظهر فى جهتك مائتى الف دينار» .

وهنا قامت قيامة النشو ، وانفض المجلس على ذلك ، فمازال النشو بأولاد ابن الجيعان حتى سلمهم الى لؤلؤ . فعاقبهم حتى هلكوا ، وصودرت ثرواتهم . ولم يكتف النشو بذلك ، بل قبض على أقاربهم ، وصادر أموال عدد من أصحابهم .

● مملوك السلطان

فى هذه السنة ٧٣٥ هـ ، كثر شغف السلطان بمملوكه الطنبغا الماردينى شغفاً زائداً ، الى درجة أنه قرر أن ينشىء له مسجداً يحمل اسمه . واختار موقعه خارج باب زويلة ، وكان لابد من ازالة عدد من البيوت بعد شرائها ، طلب السلطان النشو وكلفه بتحقيق ذلك ، عندئذ استدعى النشو أصحاب البيوت ، وابتاعها منهم بنصف قيمتها . وتم بناء المسجد والذى لازال قائماً حتى الآن .

وفى نفس هذه السنة جرت محاولة للتخلص من النشو عن طريق الوقيعة ، إذ كتبت رقعة الى السلطان تذكر ظلم النشو ، وتسلط أقاربه على الناس وكثرة أموالهم ، وعشق صهره لغلام تركى . استدعى السلطان النشو ، وبعد أن قرئت عليه القصة قال : أنا أعرف من كتبها ، وحلف على براءة أقاربه من هذا الشاب . وبكى ثم انصرف .

وحاول عدد من الأمراء أن ينبهوا السلطان الى ثروة النشو الطائلة ، لكنه لم يستجب اليهم ، ولم يصدقهم . كان النشو يحرص دائماً على أن يبدو أمام السلطان فى مظهر الفقير المعدم حتى تزداد ثقة السلطان فيه ، ولكى يؤمن السلطان بفقره كان يقترض من كبار موظفى الدولة المتصلين بالسلطان . مبالغ صغيرة من المال بين الحين

والآخر ليوهمهم أنه لا يملك شيئاً . أرسل ذات يوم الى رئيس الأطباء يطلب منه مائة درهم بحجة أن ضيفاً نزل عنده وليس لديه ما يكرمه به ولكي تجوز حيلته على السلطان انتهز فرصة وجود كبير الأطباء عنده ذات يوم . وشكا فقره للسلطان . وقد أمن رئيس الأطباء على هذه الدعوى بحكم ما وقع بينه وبين النشو من قبل وأمعن النشو فى تصرفاته التى لحقت الخاصة والعامة على السواء ، فتدخل فى تجارة السلع الضرورية للحياة من لحم وفول وأقمشة وكان يشترى منها باسم السلطان كميات كبيرة بأسعار رخيصة ثم يبيعها للناس بأثمان عالية .

وهنا لندع المقريزى يحدثنا من خلال كتابه السلوك عن وقائع النشو ..

● رسالة تتضمن الوقيعة فى النشو وأقاربه

فى يوم الاربعاء سابع عشر ربيع الأول (٧٣٦) عزل الأمير سيف الدين بغا عن الدوادارية ، واستقر عوضه سيف الدين كاجار الماردينى ، ثم أخرج بغا على أمرة عشر بصفد . فى ليلة الجمعة سادس ربيع الآخر . وسببه أن بعض تجار قيسارية جهاركس طرح عليه النشو ثياباً بضعفى قيمتها كما هى عادته ، فرفع قصته للسلطان على يد بغا ، وأحضره بغا بين يديه فشكا حاله ، فاستدعى السلطان النشو بحضور التاجر وقال له : كم تشكو الناس منك ! اسمع ما يقول هذا عنك من طرح القماش عليه بأغلى الأثمان . فقال «يا خوند ! هذا ما يشتكى من آمر القماش لكنه عليه للسلطان مبلغ ثلاثين ألف دينار ، وقد هرب منى وأنا أتطلبه . وهذا المبلغ من إرث جارية تزوجها التاجر وهى من جوارى الشهيد الملك الأشرف خليل ، ماتت عنده وخلفت نحو مائة ألف دينار وما بين جواهر وغيرها ، فأخذ الجميع ولم يظهر على السلطان شىء» .

ثم التفت النشو الى التاجر وقال له :

«بحياة رأس السلطان ! ما كنت متزوجاً بفلانة ؟» .

يعنى الجارية المذكورة ، فقال «نعم» ، فأمره السلطان أن يسلمه لابن صابر المقدم حتى يستخلص منه المال . فأخذه ابن صابر وشهره بالقاهرة وعاقبه بالقيسارية مراراً حتى أخذ منه مبلغ خمسين ألف درهم ، ثم تحول النشو على بغا ، وراح يقول عنه انه مرتش ، وكان السلطان يكره الرشوة ، فأثر فيه كلام النشو ، فأخرجه ، وسعى النشو أيضاً بطقتمر الخازن حتى غير السلطان عليه .

.. وفى ليلة الثلاثاء ثالث عشر رجب قبض على ابن هلال الدولة ، وعلى ناصر الدين محمد ابن المحسنى ، وأخرجا الى الاسكندرية بسعاية النشو .

النشـــــو..
يســـعى في النـــاس بالشـــر ولا ينـــجو من أذاه أحـــــد !

.. واشتدت وطأة النشو على الناس ، وابتكر مظلمة لم يسبق اليها وهى أنه ألزم أهل الصاغة ودار الضرب ألا يبتاع منهم أحد ذهباً ، بل يحمل الذهب جميعه الى دار الضرب ، ليصك بصكة السلطان . فجمع من ذلك مالا كثيراً للديوان . ثم تتبع النشو الذهب المضروب فى دار الضرب ، فأخذ ما كان منه للتجار والعامة ، وعوضهم عنه بضائع ، وحمل ذلك كله للسلطان . وانحصر ذهب مصر بأجمعه فى دار الضرب ، فلم يجسر أحد على بيع شىء منه فى الصاغة ولا فى غيرها . ثم ان السلطان استدعى منه بعشرة آلاف دينار ، فاعتذر عنها فلم يقبل عذره ونهره فنزل النشو وألزم أمين الحكم بكتابة ما تحت يده من مال الأيتام ، وطلب منه عشرة آلاف دينار قرضاً فى ذمته ، فدله على مبلغ أربعمائة ألف درهم لأيتام الدوادارى تحت ختم بهاء الدين شاهد الجمال ، فأخذها منه وعوضه عنها بضائع ، ثم بعث النشو الى قاضى القضاة تقى الدين محمد بن أبى بكر بن عيسى الاخنائى المالكى فى تمكينه من مال أولاد (الأمير) أرغون النائب ، وهو ستة آلاف دينار ، وكانوا تحت حجره فامتنع وقال «السلطان ما يحل له أخذ مال الأيتام» . فرد عليه «السلطان إنما يطلب المال الذى سرقه أخوك من خزانة الخاص حيث كان ناظرها ، فان الحساب يشهد عليه بما سرقه من الخزانة» ، وقام فى فورة الى السلطان ، ومازال به حتى بعث الى القاضى يلزمه بحمل المال الذى سرقه أخوه من الخزانة ، ويقول له «أنت إيش كنت من مملوكى ؟» ، فلم يجد قاضى القضاة بدا من تمكين النشو من أخذ المال .

.. فى ذى القعدة من نفس السنة ، سقط طائر حمام بالميدان ، وعلى جناحه ورقة تضمنت الوقيعة فى النشو وأقاربه ، والقدح فى السلطان بأنه أخرب دولته ، فغضب السلطان من ذلك غضباً شديداً ، وطلب النشو وأوقفه على الورقة ، وتنمر عليه لكثرة ما يشكى منه ، فقال : «يا خوند ! الناس معذورون ! وحق رأسك لقد جاءنى خبر هذه الورقة ليلة كتبت ، وهذه فعلة العلم أبى شاكر بن سعيد الدولة ناظر البيوت ، كتبها فى بيت الصفى كاتب الأمير قوصون ، وقد اجتمع هو وأقاربه» ، وأخذ النشو يعرف السلطان بما كان من أمر سعيد الدولة فى أيام بيبرس الجاشنكير وأغراه به حتى طلبه ، وسلمه الى الوالى علاء الدين على بن حسن المروانى ، فعاقبه عقوبة مؤلمة ، وطلب السلطان الأمير قوصون وعنفه على فعل الصفى كاتبه ، فطلبه قوصون وهدده ، فحلف بكل يمين على براءته مما رمى به . فتتبع النشو عدة من الكتاب وجماعة من الباعة ، وقبض عليهم بسبب ابن شاكر ، ونوع العذاب عليهم بيد الوالى ، وخرب دورهم بالمحراث ، وقبض النشو على الموفق هبة الله بن سعيد الدولة . ثم افرج عنه بعناية الأمير أقبغا عبد الواحد ، وعذب ابن الأزرق ناظر الجهات .

● أرباب الدواليب يتضررون من سطوة النشو

سنة سبع وثلاثين وسبعمائة .

.. وفيها أجدبت زراعة الفول ، فالزم النشو سماسرة الغلال الا يباع الفول الا للسلطان فقط ، فتضرر أرباب الدواليب (المقصود بالدواليب جميع الآلات المستخدمة فى الزراعة والصناعة ، وهذه الآلات كانت تدور بالأبقار ، والأبقار تعتمد على أكل الفول) .

وفيها صادر النشو جماعة من أرباب الدواليب بالوجه القبلى ، وأخذ من محتسب البهنسا وأخيه مائتى ألف درهم وألفى أردب غلة ، فرافع بن زعلزع من أمراء الصعيد أولاد قمر الدولة عند النشو ، فاقتضى رأيه مصادرة ابن زعازع لكثرة ماله ، وأوقع الحوطة على موجوده . وكتب الى والى البهنسا ليعاقبه أشد العقوبة ، فلف والى البهنسا على أصابعه الخروق وغمسها فى القطران وأشعل فيها النيران ، ثم عراه ولوحه على النار ، حتى أخذ منه ما قيمته الف الف وخمسمائة الف درهم ، ووجد له أربعمائة فرجية بفرو ، ومائة وعشرين جارية ، وستين عبدا ، ثم كتب عليه حجة بعد ذلك بمائة الف درهم ، واحتج النشو بمصادرته بانه وجد كنزا .

.. وفيها ارتفع سعر اللحم لقلة جلب الأغنام حتى بيع الرطل بدرهم وربع ، وسبب ذلك ان النشو كان يأخذ الغنم بنصف قيمتها ، فكتب الى نائب الشام ونائب حلب بجلب الأغنام ، ثم ان النشو استجد للسواقى التى بالقلعة أبقاراً ، وأحضر أبقارها التى ضعفت وعجزت مع الأبقار التى ضعفت بالدواليب ، وطرحها على التجار والباعة بقياس القاهرة ومصر وأسواقها حتى لم يبق صاحب حانوت حتى خصمه منها شىء على قدر حاله ، فبلغ كل رطل منها درهمين وثلث ، ورميت تلك الأبقار على الطواحين والحمامات كل رأس بمائة درهم ولا تكاد تبلغ عشرين درهماً فبلى الناس من ذلك بمشقة وخسارة كبيرة .

.. واتفق ان النشو أغرى السلطان بموسى بن التاج اسحق حتى رسم بعقوبته الى ان يموت ،

فضرب زيادة على مائتين وخمسين شيبا (الشيب سير السوط أى الكرباج) . حتى سقط كالميت . ثم ضرب من الغد أشد من ذلك ، وحمل على أنه قد مات . فسر النشو بذلك سروراً زائداً ، وذهب ليرى موسى وهو ميت فوجد به حركة ، وفى أثناء ذلك طلب السلطان الأمير لؤلؤ فأخبره بأن موسى قد بدأ يئن ، وبعد ساعة يموت ، فرسم ألا يضرب بعد ذلك ، فشق هذا على النشو .

.. وفيها قل فرو السنجاب من الاسواق ، وذلك لقلة جلبه ، فامر النشو باخذ ما على التجار من الفرجيات ذات الفرو ، فهوجمت جوانيت التجار والبيوت حتى أخذ ما على الفرجيات من السنجاب ، فبلغ النشو دعاء التجار عليه فسعى عند السلطان عليهم ، ونسب اليهم أخذ الربا ، وقال ان عندهم كميات كبيرة من الأخشاب والحديد واستأذنه فى بيعها عليهم ، فاذن له السلطان فنزل وطلب تجار القاهرة ومصر وكثيرا من ارباب الأموال ، ووزع عليهم من الف دينار كل واحد الى ثلاثة آلاف دينار ليحضروا بها ويأخذوا عنها صنفاً من الاصناف ، فبلغت الجملة خمسين الف دينار ، وضرب من تخلف منهم بالمقارع . ويبدو أن أحد هؤلاء التجار كان على معرفة بالست حدقة زوجة السلطان وأم ابنه انوك ، فذهب اليها وشكا النشو ، وقال ان الخشب الذى فرضه عليه قيمته الحقيقية ألفا درهم . وطلب منه النشو الف دينار ثمناً له ،عندئذ تحدثت السيدة حدقة الى السلطان فى ظلم النشو للناس فطلب السلطان النشو ، وانكر عليه ذلك ، وتجهم له . فانصرف النشو وهو فى حالة شديدة من الغيظ ، وبدأ يدبر انتقاماً من ذلك التاجر . استدعى رجلا واتفق معه على الانتقام من التاجر ذهب الرجل الى التاجر وسأله فى قرض مبلغ من المال ، فأخذ التاجر يشكو مما به من الزامه بالفى دينار عن ثمن خشب طرحه عليه النشو ، فقال له الرجل « ارنى الخشب فانى محتاج اليه ، » فلما رآه أعجبه واشتراه منه بفائدة الف درهم فى الشهر ، امتلأ التاجر فرحاً ، وأشهد عليه بذلك ، ومضى الرجل ليأتى بثمن الخشب . عاد الى النشو واخبره بما تم ودفع اليه بنسخة المبايعة ، فقام من فوره الى السلطان وأعلمه انه نزل ليرفع الخشب من حاصل التاجر فوجده قد باعه بفائدة الف درهم فطلب السلطان التاجر وسأله عما رماه عليه النشو . فاغتر البائس وأخذ يقول « ظلمنى واعطانى خشباً بالفى دينار يساوى الف درهم » فقال له السلطان « واين الخشب ؟ » قال « بعته بالدين » . فقال النشو « قل الصحيح فان هذه معاقدتك بيعه» « فلم يجد بدا من الاعتراف ، فحنق عليه السلطان وقال « ويلك ، تقيم الغاثة « تستغيث » وأنت تبيع بضاعتي بفائدة ؟ » ثم أمر النشو بضربه وأخذ الالف دينار منه مع مثلها . وعظم النشو عند السلطان ، ثم عبر السلطان الى نسائه وسبهن وعرفهن ما جرى . وقال :

« مسكين النشو ! ما وجدت له احدا يحبه كونه ينصحنى ويحصل مالى » .

وفى نفس السنة شكا المماليك من تأخر كسوتهم ، فطلب السلطان النشو والزمه بحمل كسوتهم من الغد ، ومعها مبلغ عشرين الف دينار فنزل النشو وألزم الطيبى ناظر المواريث بتحصيل خمسة الآف دينار ، وبعث المقدمين الى الاسواق ففتحوا حوانيت التجار واخذوا كسوة المماليك وحوائجهم وأخفافهم ونعالهم وغير ذلك ، واخذوا مركباً فيه عدة بضائع طرحوها على الناس بثلاثة أمثال قيمتها ، واحيط بتركة نجم الدين محمد الأسعودى ، وقد مات وترك زوجة وابنة ابن ، وأخذت كلها ، وأخذت وديعة من تركته لأولاد ايتام تحت حجره ، مبلغها نحو خمسين الف درهم ، وأنفقت فى يومها على المماليك والخدام ، وفتحت قيسارية جهاركس ، وأخذ منها مقاطع الشرب « قماش رفيع من الكتان » برسم الكسوة . فارتجت المدينة بأهلها ، وترك كثير من التجار حوانيتهم وغيبوا ، فصارت مفتحة ، والأعوان تنهب لأنفسها ما ارادت ، فلم ير يومئذ بالقاهرة ومصر الا باك أو صائح أو نائح ، فكانا يومين شنيعين ، وعول أرباب الحوانيت على رفع ما فيها وخلوها ، فعرف النشو السلطان ذلك فنودى « من أغلق حانوته أخذ ماله وشنق » ففتحوها ..

نعم ..

لم يبق فى مصر الا باك أو صائح أو نائح .

هكذا فى بساطة وقوة يلخص المقريزى ما وصل اليه حال الناس تحت سطوة النشو ، وتمضى السنوات حافلة بظلمه ، يمضى النشو الى الاقاليم فيصادر الأموال ، واذا أفرج عن انسان يشق هذا عليه ، ولا يهدأ له بال حتى يعيده مرة أخرى الى السجن ، وفى هذا الخضم تجرى

محاولة لاغتيال النشو ، إذ حدث فى يوم الاثنين ثانى عشر رمضان أن اعترضه فارس ، ضربه ، فأخطأ سيفه رأس النشو ، جرح كتفه فقط ، فغضب السلطان غضباً شديداً ، ولم يحضر السماط ، وارسل الاطباء لمعالجة النشو ، وأغلظ على الأمراء بالكلام ، وما زال يشتد ويحتد حتى عاد القصاد بسلامة النشو فسكن ما به .

وتجيء سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، ولا يكف النشو ، ولا يهدأ ، يسعى فى الناس بالشر ، ولا ينجو من أذاه أمير أو طحان . وعندما يبلغه أن الوعاظ يدعون عليه من فوق منابرالجوامع ، يسعى عند السلطان حتى يمنع الوعاظ بأجمعهم من الوعظ . وتستمر الأحوال على ما هى عليه فى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة ، يأخذ النشو مال الأقباط مع أنه كان فى الأصل قبطياً ثم أسلم ، ويستولى على حلى النساء ، يقول المقريزى :

« وفيها كثرت مصادرة النشو للناس من أهل مصر والقاهرة والوجه البحرى والقبلى ، حتى خرج فى ذلك عن الحد »

ولكن لكل أول آخر ، ولكل بداية نهاية ..

● النهاية

سنة أربعين وسبعمائة .

فى يوم الاثنين ثانى صفر قبض على النشو ، وعلى أخيه شرف الدين رزق الله ، وعلى أخيه المخلص ، ورفيقه مجد الدين ، وعلى صهره ولى الدولة .

كيف ؟

لنصغ الى المقريزى محدثنا عن هذا الزمن البعيد .

« .. وسبب ذلك أنه لما أسرف النشو فى الظلم بحيث قل الجالب للبضائع وذهب أكثر أموال التجار لطرح الاصناف عليهم بأغلى الاثمان ، وطلب السلطان منه يتزايد ، خاف النشو العجز فرجع عن ظلم العامة ، الى التعرض الى الخاصة ورتب مع اصحابه ذلك .

وكانت عادته فى كل ليلة أن يجمع اخوته وصهره ومن يثق فيه للنظر فيما يحدثه من مظالم فيدله كل منهم على داهية ، ثم يفترقون وقد أبرم للناس بلاء يعذبهم الله به من الغد على يده ، فكان مما اقترحه ان رتب أوراقاً تشتمل على فصول يتحصل فيها ألف ألف دينار عيناً . وقرأها على السلطان ، ومنها التقاوى السلطانية المخلدة بالنواحى من الدولة الظاهرية بيبرس والمنصورية قلاوون فى اقطاعات الامراء والاجناد وجملتها مائة الف وستون الف اردب ، سوى ما فى بلاد السلطان من التقاوى ومنها الرزق الاحباسية على الجوامع والمساجد والزوايا وغير ذلك وهى مائة الف فدان (وثلاثون الف فدان) .

النشـــــو..
يســـعى في النـــاس بالشـــر ولا ينـــجو من أذاه أحـــــد !

ويمضى المقريزى فى سرد تفاصيل ما خططه النشو مع اقاربه للاضرار بكبار الأمراء وكان ماتفتق عنه ذهنه ، هو الزام متولى كل اقليم باستخراج التقاوى من أرضه وحملها الى خزائن السلطان ، ثم تباع من جديد الى الناس بمعرفة الخاصة السلطانية . انزعج الأمراء من هذا القرار ، وقال احدهم للسلطان . « يا خوند والله ان النشو بضرك اكثر مما ينفعك »

ويبدو أن السلطان أمعن الفكر ، وأحس أن النشو مكروه لدى الجميع ، ولم يكن اتخـاذه القـرار سهلا ، فكتب الى الأمير تنكز نائب الشام يستشيره فى الأمر ، ويخبره ان النشو اصبح مكروها من الجميع ، ولكنه يخدم السلطان وينفعه ، واجاب الامير تنكز مؤيداً سوء سيرة النشو ، وختم خطابه قائلا « ورأى السلطان فيه أعلى » .

وكثرت الأوراق التى كانت تلقى الى السلطان وتحوى ذما للنشو ، ومما قيل فى بعضها :

ايا ملكا اصبح فى نشـــوة
من نشـــوة الظـــالم فى نشيه
أنشيته فلتنشئن ضغائنـــا
سترى غباوتها بصحبة غيـــه
حكمته فحكمت أمرا فاســدا
وتوحشت كل القـــلوب لفحشه
سترى بوارقها اذا ما أظلمت
وتحكمت أيـدى الزمان ببطشـــه
ولتندمن ندامـــة كسعيه
يوما اذا ذبح الخروف بكبشـــه

وقرأ السلطان فى ورقة أخرى :

أمعنت فى الظلم واكثرتـــه
وزدت يا نشو على العـــالم
ترى من الظالم فيكم لنـــا
فلعنة الله على الظـــالم

وحدث ان مرض الامير يلبغا ، وكان السلطان يثق فيه ، فأقام عنده حتى يطمئن عليه ، وخلال حديثهما قال يلبغا «يا خوند ! قد عظم احسانك لي ووجب على نصحك ، والمصلحة تقضى بالقبض على النشو ، فالامراء جميعاً يكرهونه ، ويكرهونك لحبك إياه ، وما من مملوك من مماليك الا يترقب غفلة منك ليقضى عليك انتقاما منك لأنك تركت هذا الشخص يعبث بمصالح الناس »

وبكى يلبغا ، وبكى الناصر ، وقام من عنده مبلبل الخاطر ، ليصدر أمرا بالقبض على النشو يقول المقريزى .

« وطلب السلطان المقدم ابن صابر ، واسر اليه ان يقف بجماعته على باب القلعة وباب القرافة ، ولا يدعو أحداً من حواشى النشو وأقاربه واخوته ان ينزلوا ، وان يقبضوا عليهم كلهم ، وامر السلطان الامير بشتاك والامير برسبغا الحاجب ان يمضيا الى النشو ، ويقبضا عليه وعلى أقاربه فخرج بشتاك وجلس على باب الخزانة وطلب النشو من داخلها ، فظن النشو انه جاء ليعاده مع السلطان حتى يحتاطا على موجود آقبغا عبد الواحد ، فساعة ما وقع بصره عليه امر مماليكه بأخذه الى بيته من القلعة ، وبعث الى الامير ملكتمر الحجازى فأخذ أخاه رزق الله وأخذ اخاه المخلص وسائر اقاربه . فطار الخبر الى القاهرة ومصر ، فخرج الناس كأنهم جراد منتشر » .

خرج الناس كالجراد المنتشر !!

لحظة مدببة فى مسار الزمن ، عندما ينتهى الكابوس العام ، فيسرى الأثر الى كل انسان ، البعيد ، الوافى ، الكبير ، الصغير ، لحظة الخلاص ، عندما يندفع الانسان الى خارج بيته ، يظن انه بمفرده ، واذا بالجميع فى الشارع ، هكذا خرج الناس كالجراد المنتشر عندما سمعوا بخبر القبض على النشو وزمرته ، وفى القلعة جلس السلطان ولازال فى نفسه شك ، انه يقول للامراء .

« وكم تقولون النشو نهب أموال الناس ! الساعة ننظر المال الذى عنده » .

فى القاهرة يعم الفرح ، أغلقت الأسواق ، واتجه الجميع الى ميدان الرميلة تحت القلعة ، كما يتجهون الى ميدان التحرير فى العصر الحديث ، أو ميدان العتبة ، أو إلى منشية البكرى (ليلة التاسع من يونيو ١٩٦٧ ، وليلة وفاة عبد الناصر) ، جاء الليل والناس لم تنصرف بل أوقدوا الشموع ، يرفعون على رؤوسهم المصاحف ، وينشرون الاعلام ، وهم يضجون ويصيحون استبشاراً وفرحاً بقبض النشو ، والامراء يشيرون اليهم ان يكثروا مما هم فيه . وقضوا الليل كله على ذلك ، وفيه زاد النيل بعد توقفه ، فقال علاء الدين الشاعر :

فى يوم الأثنين ثاني الشهر من صفر
نادى البشير الى ان اســـمع الفلكا
يا اهـــل مصر نجـــا موسى ونيلكم
طغـــا وفرعـــون وهو النشو قد هلكا

صباح الثلاثاء ، نودى فى القاهرة :

« بيعوا واشتروا واحمدوا الله على خلاصكم من النشو » .

صباح الثلاثاء ايضاً انتحر شقيق النشو ، واخرجوه فى تابوت امرأة حتى دفن فى مقابر الأقباط خوفاً عليه من العامة ، وتمت الحوطة على اموال النشو ، النشو الذى كان يتظاهر بالفقر والحاجة ، والذى كان السلطان يظن حتى آخر لحظة أنه لا يمتلك شيئاً ، فماذا وجدوا عند النشو ، فى بستان بجزيرة الفيل وجدوا أمه وامرأته واخته وولديه ، ومعهم ستون جارية ، ومائتا جنبه (كيس من جلد البعير) عصير عنب ثم حمل الامراء ثروة النشو الى السلطان ووضعوها بين يديه ، وضعوا خمسة عشر الف دينار ذهب ، وألفين وخمسمائة حبة لؤلؤ قيمة كل حبة ما بين ألفى درهم الى الف درهم ، وسبعين فصا بلخش قيمة كل فص ما بين خمسة آلاف درهم الى الفين ، وقطعتين زمرد فاخر زنتهما رطل ونيف وستين حبلا من لؤلؤ كبار زنة ذلك اربعمائة مثقال ، ومائة وسبعين خاتم ذهب وفضة بفصوص مثمنة ، وكف مريم مرصع بجوهر ، وصليب ذهب مرصع ، وعدة قطع زركش سوى حواصل لم تفتح ، فخجل السلطان لما رأى ذلك ، واستمر الأمراء ينزلون كل يوم لاخراج حواصل النشو ، فوجد له من الأوانى الصينى والبلور والتحف السنية الشىء الكثير ، ثم وجدت عنده مائتى برميل مملوئين بالملوحة «سمك مملح» ، وثمانين بالجبن ، واحمالا كثيرة من بضائع الشام ولحماً كثيرا من لحم الخنزير ، واربعة آلاف جرة خمر ، سوى مانهب ، ووجد له اربعمائة بدلة قماش جدد ، وثمانون بدلة مستعملة ، وزراكش ومفرجات (عباءات) ، وستون قفطاناً نسائياً ، ومناديل زركش عدة كثيرة ، ووجد له عدة صناديق بها قماش سكندرى كان قد صنع لحساب ملكة المغرب ولكنه اختلسه وكثير من قماش الامراء الذين ماتوا أو قبض عليهم ، ووجد له مملوك تركى كان النشو قد خصاه هو واثنين معه ماتا ، ثم وجدوا لأخوة النشو ذخائر نفيسة ، منها لصهره ولى الدولة صندوق فيه مائة وسبعون فص بلخش ، وستة وثلاثون مرملة (ظرف كان يوضع فيه الرمل الذى يستخدمه الكتاب لتجفيف الكتابة) مكللة بالجواهر الرائعة ، واحدى عشرة عنبرية مكللة بلؤلؤ كبار ، وعشرون طراز زركش ، وغير ذلك ما بين لؤلؤ منظوم وزمرد ، وكوافي زركش ، وقدر الجميع بأربعة وعشرون الف دينار .

وفى نهاية هذه السنة ٧٤٠ هجرية ، مات النشو ، واندثر أمره مات النشو عام ٧٤٠ هجرية بالتحديد يوم الأربعاء ثانى ربيع الآخر .

ولكن بعد انقضاء سبعة قرون على اختفائه ، هل يمكن القول انه اختفى من حياتنا ؟ » .

جمال الغيطانى